تربة قلبية

(مرقس ٤:١-٢٠)

تأليف: جو شوبيرت

قيل لي منذ صباي بان «المثل» هو قصة دنيوية ذات معنى سماوي. ولست أدري من هو أول من أتي بهذا الوصف، ولكنه جميل. في أمثال يسوع، تلتقي السماء والأرض.

يوضح الأصحاح الرابع من إنجيل مرقس لماذا بدأ يسوع يعلم بالأمثال. إذ يقول مرقس البشير:

> وابتدأ أيضاً يعلم عند البحر. فاجتمع إليه جمع كثير حتى إنه دخل السفينة وجلس على البحر والجمع كله كان عند البحر على الأرض. فكان يعلمهم كثيراً بأمثال... (آيتي ١ و ٢).

وهناك يأتي أول مثل قاله يسوع، وهو مثل الزارع، أو مثل البذور.

١. لماذا الأمثال؟

لماذا ابتدأ يسوع يعلم بهذا الوسيلة التعليمة؟ أولاً، كان يريد أن يوضح تعاليم معينة للذين معه، اي التلاميذه. ثانياً، كان يريد ان يجعل حقائق معينة كانت غامضة على الذين هم ليس من أتباعه.

في إنجيل مرقس ٤:١٠-١٢، وضح هذا القصد. إذ يقول مرقس البشير:

> ولما كان وحده سأله الذين حوله مع الاثني عشر عن المثل. فقال لهم قد أُعطِيَ لكم أن تعرفوا سر ملكوت الله. وأما الذينَ هم من خارج فبالأمثال يكون لهم كل شيء؛ لكي يبصروا مبصرين ولا ينظروا ويسمعوا سامعين ولا يفهموا لئلا يرجعوا فتغفر لهم خطاياهم.

يقلق كثيرون من ان يسوع يستطيع ان يخبيء اي شيء عن ملكوت السموات من اي شخص. ويقولون بان هذا عكس لكل شيء أتي من أجله. وهذه خلاصة سطحية غير صحيحة. عندما تكلم يسوع بأمثال، كان يستخدم وسيلة معروفة مئة بالمئة لدى معلمي اليهود والسامعين. يوجد عدد من الأمثال في العهد القديم. على سبيل المثال، صيغ توبيخ ناثان لداود بشكل مثل ممتاز. وكان المعلمين اليهود في أيام يسوع يستخدمون أيضاً وسيلة مثلى في تعليمهم.

للأمثال صفات خاصة. كانت غامضة دائماً. يمكن لأي شخص ان يفهمها تماماً إذا ما نظر إليها بوجه نظر السيد والمعلم الذي تكلم بها. يصبح التعليم المعطي في مثل معين مفهوماً فقط بعد ان يقبل الشخص المعلم ورسالته.

وبموجب الأناجيل، كان يجب ان يرى ملكوت الله في شخصية وفي عمل يسوع المسيح. إن لم يقبله شخص، فان ذلك الشخص لم يفهم تعليمه. الذين صاروا تلاميذ يسوع هم فقط يمكنهم ان يفهموا أمثاله بصورة صحيحة. مع ان يسوع تكلم عادة بأمثال للجموع، فان شرح هذه الأمثال كان محدودا للذين حوله من تلاميذه.

قد تبدو كلمات مرقس ٤:١٢ قاسية. حيث قال يسوع «لكي يبصروا مبصرين ولا ينظروا

ويسمعوا سامعين ولا يفهموا لئلا يرجعوا فتغفر لهم شيء.» انه من النموذجي في اللغة العبرية ان تعطى النتيجة وكأنها القصد. من الخطأ ان يستخلص بان السبب الذي جعل يسوع يتكلم بالأمثال هو لكي لا يخلص اناس معينين. لم يكن ذلك ما قصده يسوع. تكلم يسوع بالأمثال وكانت النتيجة هي عدم فهم أُناس معينين ولذلك لم يخلصوا.

الأية ١٢ مقتبسة كلها من سفر اشعياء. والاقتباس في سجل مرقس هو مختصر، ولكن النص المقابل من إنجيل متى يسرد المقتبس كله ويساعدنا لنرى ما الذي كان يقوله اشعياء النبي حقاً وماذا يعنيه يسوع حقاً. قال يسوع في إنجيل متى الأصحاح ١٣ ما يلي:

> من أجل هذا أكلمهم بأمثال. لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون.فقد تمت فيهم نبوة إشعياء القائلة تسمعون سمعاً ولا تفهمون. ومبصرين تبصرون ولا تنظرون (آيتي ١٣ و ١٤).

مضى إشعياء النبي يشرح لماذا يحدث مثل هذا العجز. انه يقتبس من الآية ١٥ كما يقول «لأن قلب هذا الشعب قد غلظ. وآذانهم قد ثقل سماعها، وغمضوا عيونهم...» من الذي غمض عيونهم؟ الشعب، هم الذين غمضوا عيونهم. فعلوا ذلك للسبب المعطى في الآية ١٥. غمضوا عيونهم إرادياً وطوعياً، «لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم.» لم يستطع الشعب أن يرى ولا أن يفهم ولا أن يسمع. ولكن ذلك ليس لما فعله الله. وإنما بسبب رفض الشعب المتعند ان يأتوا إلى يسوع ويقبلوه كمعلم من عند الله. لهذا السبب حجب بعض من تعليمه عن الذين من الخارج إذ كلم بأمثال بينما يظهر المعنى للذين معه. إن كان يسوع قد تكلم بوضوح وبدون ألتباس عن المسيا وملكوته لكل الناس، لكان الفريسيون قد قتلوه قبل الآوان. لهذا احتوى يسوع تعاليمه في تلك الأمثلة الجميلة والمتواضعة، التي تحجب حقيقته عن المغرورين والمتكبرين ولكن كشفها للذين أرادوا ان يتعلموا.

٢. المثل الأول

أنظر الآن إلى أول تلك الأمثال، مثل الزارع، قال يسوع:

> اسمعوا: هوذا الزارع قد خرج ليزرع؛ وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت طيور السماء وأكلته. وسقط آخر على مكان محجر حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض؛ ولكن لما أشرقت الشمس، احترق؛ وإذ لم يكن له أصل، جف. وسقط آخر في الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يعط ثمراً. وسقط آخر في الأرض الجيدة، فأعطى ثمراً يصعد وينمو؛ فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة. ثم قال لهم من له أذنان للسمع فليسمع (الآيات ٣-٩).

وفيما بعد على انفراد فسر يسوع هذا المثل للذين معه، اي التلاميذ. وبدأ شرحه بالآية ١٤:

> الزارع يزرع الكلمة. وهؤلاء هم الذين على الطريق؛ حيث تزرع الكلمة، وحينما يسمعون يأتي الشيطان وينزع الكلمة المزروعة في قلوبهم. وهؤلاء كذلك هم الذين زرعوا في الأماكن الحجرية: الذين حينما يسمعون الكلمة يقبلونها للوقت بفرح؛ ولكن ليس لهم أصل في ذواتهم، بل هم إلى حين؛ فبعد ذلك إذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة، فللوقت يعثرون. وهؤلاء هم الذين زرعوا بين الشوك: هؤلاء هم الذين يسمعون الكلمة؛ وهموم هذا العالم وغرور الغنى وشهوات سائر الأشياء تدخل وتخنق الكلمة فتصير بلا ثمر. وهؤلاء هم الذين زرعوا على الأرض الجيدة: الذين يسمعون الكلمة ويقبلونها ويثمرون واحد ثلاثين وآخر ستين وآخر مئة (الآيات ١٤-٢٠).

يسمى هذا المثل منذ وقت قديم بمثل الزارع، ولكن لم يذكر الزارع بعد الجملة الأولى. انه ليس عن الزارع اكثر منه عن نوعية الأرض التي فيها يزرع الزارع. انه مثل بارز عن حالة قلوب البشر التي قد تزرع فيها البذرة، اي كلمة الله. الزارع هو المعلم. والبذرة هي كلمة الله. و {انواع} الأرض تمثل قلوب السامعين.

كان يسوع يشدد دائماً ان الموعظة الجيدة ليس هي التي تخلق عبادة جيدة، وإنما السامعين المحسنين. انه ليس فم الواقف على المذبح الذي يجعل العبادة فعالة بل آذان الجالسين على المقاعد.

الأرض الجيدة هي غاية في الأهمية. الأرضية التي تسقط فيها البذرة، هي الجزء المهم في عملية التعليم. إن كنت تريد ان تضع حجماً لأعضاء كنيسة ما، لا تضع انتباهك على المنبر، بل على الجالسين على المقاعد. فان نمو البذرة يعتمد دائماً على خواص التربة. ويعتمد المحصول على نوعية الأرض.

التربة المسحوقة

يتكلم يسوع عن أربع أنواع من الأراضي، اي أربعة أنواع من السامعين. النوع الأول من الأرض هو «أرض بجانب الطريق» أرض غلظ أديمها كصخرة لأنها وطأت بكثرة. قد يكون نفس السامع غير قابل للإختراق لأن الخطية قد تراكمت عليه. سماع الحقيقة بصفة متكررة في ذاتها كنظام ديني عادي، يمكن ان يوطأ على النفس. يمكن للنفس ان تكون متصلبة – لا تخترقها الموعظة كما يمكن ان يكون بكل تأكيد متصلبة بالخطية.

افحص تربتك؛ افحص نفسك. هل انها أرض مُداس عليها، بحيث ان البذرة التي سقطت عليها، اي كلمة الله، تقع دائماً في خارج قلبك كما يجري الماء من سطح صخرة؟ هل تغرز البذرة تحت السطح حيث تمكن ان تمتد جذورها، وتنبت، وتتغير طريقة حياتك؟ هل نفسك غليظ بحيث عند سماعك لكلمة الله، تخترقه الكلمة من الخارج وتسقط أخيراً؟ مثل بذرة المزارع التى سقطت على الأرض الصخرية، لم تنغرزأبداً تحت السطح، وقال يسوع بان الطيور جاءت سريعاً وأكلتها. يسمع كثيرون رسالة يسوع بهذا المثل ويبقون عقولهم صلبة بحيث لا يكمن لبذرة الحقيقة اختراقها.

يمكن للتفرقة ان تغلظ النفس. الشخص الذي يؤمن بنظرية مسبقة عن الحقيقة وما قد تكون، يستحيل عليه ان يسمع الكلمة الحقة التي قيلت. قد يصمت الكبرياء أيضاً آذاننا ويجعلنا صم. الشعور بالذنب وعادة خاطئة في حياتنا قد تجعلنا غير قادرين ان نسمع ما يقول الله.

عندما كنت ابشر بمدينة ستيلواتر بولاية اوكلوهوما الاميركية، قال لي شاب في أحدى اللقاءات الجامعية: «دكتور شوبرت، لدي مشكلة عما تبشر به.» فقلت: «ما هي نوع المشكلة التي في ذهنك؟» قال الشاب: «لا يمكنني ان اقبل الحقيقة القائلة بان الله خلق العالم كما يعلمها الكتاب المقدس. ولا يمكنني ان اقبل بان يسوع ولد بالفعل من عذراء. ولا يمكنني ان أقبل بانه قام من القبر في اليوم الثالث.» وعندما توطدت العلاقة بيننا وتحدثنا عن هذه المشكلة لمدة بضع أسابيع، اعترف ذلك الشاب أخيراً وقال لي بان مشكلته لم تكن مشكلة تفكير اكثر منها مشكلة أخلاقية. كان يعيش حياة الفساد، وقد رفض كلمة الله لأنها تدين طريقة حياته. كان من السهل له ان يقول فقط: «لي عائق ذهني لرسالتك.»

من النادر جداً ان أجد شخص يستطيع القول بصراحة: «رفضي لرسالة المسيح هي مشكلة عقلية.» تأكل الخطية ايمان الشخص مثل الحامض، ويعمل الشعور بالذنب والسلوك الخاطئ على استحالة قبوله للكلمة. ولسبب التسوية الاخلاقية في حياتهم يعلمون بان الكلمة تدينهم فأغلقوا قلوبهم عنها. ربما نصادف احياناً شخص له عائق عقلي، ولكن ذلك نادر جداً. غالباً ما تكون مشكلتهم مشكلة اخلاقية أن نسبة تسع من عشرة من المشاكل التي تظهر وكأنها عائق عقلي.

عادة ما تجعل الاختلافات مع أسرنا، أو مع أصدقائنا أو مع زميل في العمل، عقولنا أرض صلبة. قد تتكاثر العواقب في حياتك وخبرتك. ولكن مهما كان سبب الصلابة فيسوع يقيمها كلها عندما قال في الآية ١٥: «وهؤلاء هم الذين على الطريق؛ حيث تزرع الكلمة، وحينما يسمعون يأتي الشيطان وينزع الكلمة

المزروعة في قلوبهم.»

الأرض المحجرة التي لم تكن لها تربة كثيرة

النوع الثاني من الأرض هي الأرض المحجرة التي لم تكن لها تربة كثيرة، توصفها آيتي ٥ و ٦:

> وسقط آخر على مكان محجر حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض. ولكن لما أشرقت الشمس أحترق؛ وإذ لم يكن له أصل، جف.

قيل لي بان في اماكن كثيرة في فلسطين يكون سمك التربة فقط بوصة أو بوصتين على مرتفعات الحجر الجيري. فإذا سقطت بذرة على سطح الصخر، تنمو وتنبت سريع جداً لأن الحجر الجيري يحتفظ بحرارة الشمس. ولكن بعد ان تمد البذرة جذورها بحثاً عن الماء، تجف بسبب العطش وتموت سريعا كما نمت سريعا لأنها تصل بجذورها إلى الصخور الصلبة حيث لا يوجد ماء. كما برزت للوجود سريعاً، هكذا أيضاً تموت سريعا.

قد رأينا أناس تمادوا في الإستجابة بعواطفهم للرسالة المسيحية، ولكن لا يستطيع أحد ان ينمو ويعيش على العواطف وحدها. لا يصير تحمس ديني مفاجيء عادة أكثر من نار خامدة. في ذات مرة رأيت أشخاصا أتوا إلى الكنيسة بقلوبهم الثقيلة وعندما سمعوا الكلمة كانت كالبرق في سماء مظلمة بعثت كل أنواع الرجاء والإشراق في حياتهم. هؤلاء الناس ومن شدة إثارة اللحظة، صنعوا تعهداً مع الله. اتضحت وكأنها فرصة جديدة للحياة بالنسبة لهم. ولكن حالما هبطت قمة وذروة عواطفهم من القمة وعادت إلى السهل حيث تعاش حقائق الحياة، استسلموا. وفي وقت وجيز أظهرت أسمائهم بتلك القائمة التي يحصل عليها شيوخ الكنيسة لأسماء الذين لا يحضروا بعد إلى اجتماعات العبادة لشعب الله. لم تستطيع الجذور ان تغرز في الأرض عميقا. قال يسوع في الآية ١٧: «ولكن ليس لهم أصل في ذواتهم، بل هم إلى حين. فبعد ذلك إذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة، فللوقت يعثرون.»

كثيراً ما يكون ديانة شخص سيرة لبدايات مندفعة ومتقطعة. تذكرني بخط بياني مشابهة لضوء الكاميرا، ذلك الذي يضيء من حين إلى آخر عند كل لقطة، أو يضيء مثل تلك الأنوار التي تدور في مقدمة قطار.

هل تذكر ذلك الشخص الذي أتى في أحد الأيام إلى يسوع وهو مسرور جداً ويطلب ان يتبع يسوع وقال باندفاع، «يا معلم، أتبعك أينما تمضي!» ظهر وكأنه لدية الرغبة لذلك جداً وأنه تلميذ متشوق. ولكن أوقف يسوع هذا الإنسان في طريقه وقال بما مضمونه: «اسمع يا صديق، انت لا تفهم ما تقوله. ألا تعلم بان للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار. وأما إبن الإنسان فليس له أين يسند رأسه؟ كان من الأفضل عليك ان تفكر تماماً قبل ان تصنع مثل هذا التعهد.»

يتضح وكأن الناس قداستنيروا في السنوات القليلة الماضية بجزء من كلمة الله، خطفوها بسرور، ومضوا إلى نوع من الأستهلال الديني. ولكنهم لم يتطوروا أبداً إلى جذور رئيسية. وبقى كل شيء على السطح.

كنت حاضر في ندوة عمل عن «خلاص النفس» فتقدم إليّ شاب في العشرينات من عمره يرتدي شعارا كبيرا أخضر وكان عليه ثلاث أحرف كبيرة: «م. د. م.» لم أرى أبداً مثله في حياتي. قلت له: «كلمني على ماذا تدل هذه الأحرف م. د. م؟» فقال، أن «م. د. م تعني متطرف ديني متعصب، وهذا هو أنا.»

هذا النوع من الناس من النادر أن يدرسوا الكتاب المقدس؛ من النادر ان يتطوروا روحياً. تعهدهم زائل. انه مصطنع، لا يدوم. كل ما تملك القلب، ولكن لا تؤثر على العقل، لا يدوم. هؤلاء الناس لم يستخدموا عادة عقولهم. انه المثل القديم: «ما يأتي بسهولة، يمضي بسهولة.» يأتي بعض الأشخاص إلى الكنيسة بحماس عظيم وبعبارات مثيرة للعواطف. يؤدون القسم بانهم سيحافظون على الايمان. ولكن بعض أسابيع قليلة يكونون في قائمة تلك الأسماء المنتهكة لتشريعات الكنيسة.

افحص عمق تربتك التي تغرز فيها جذورك الروحية. علم يسوع بان هذا قد يكون مشكلة.

الأرض المبتلية بالأشواك

النوع الثالث من الأرض هي الأرض المبتلية بالأشواك. لقد اسماها يسوع بأرض مليئة بالأشواك. لم ينثر المزارع الحكيم البذور حتى ينظف الأرض. يأتي محصول القمح الجيد من بذرة زرعت في أرض نظفت تماماً من كل الأدغال والأعشاب الغريبة. ما يهم هو مايحصده المزارع وما يأتي به.

أحياناً نسمح ان تزرع فينا حبة كلمة الله، ولكننا لا نزيل الشوك، الشوك الذي يسميه يسوع خانق الحياة، غنى وملذات. قال في الآية ١٩: «وهموم هذا العالم وغرور الغنى وشهوات سائر الأشياء تدخل وتخنق الكلمة فتصير بلا ثمر.»

كم مرة ترددنا في تفكيرنا؟ عند الحضور للعبادة، نسمع الكلمة ونقبلها، ونصبح مشجعين ومباركين. نتفق بأن نخرج ونخبر العالم بإنجيل يسوع المسيح العظيم. ثم يأتي يوم الاثنين، ونذهب إلى العمل. ويمارس العالم لعبة الضغط علينا، ونعود إلى البيت لنواجه توترالحياة مع الزوجة أو الزوج أو الأطفال. ينبت الشوك ويخنقنا.

الأرض المثمرة

هناك أيضاً الأرض الجيدة. الأرض التي قال عنها يسوع بانها أنتجت مئة مرة عما كان قد زرع فيها. تقول الآية ٢٠، «وهؤلاء هم الذين زرعوا على الأرض الجيدة؛ الذين يسمعون الكلمة ويقبلونها ويثمرون واحد ثلاثين وآخر ستين وآخر مئة.»

ما هي نسبة الخصوبة في أرضك؟ كلها تعتمد على الظروف المحيطة بالبذرة المزروعة في قلبك. وعد الله بانه سيزيدك إن وفرت الظروف الملائمة في حياتك للنمو، ومراعاة وتربية الحبة المزروعة.

الخلاصة

أين تجد نفسك في هذا المثل؟ يجد كل واحد منا نفسه في هذا المثل بطريقة أو بأخرى. ما هي الفرصة التي تسمح بها للكلمة ان تنمو في حياتك؟

هذا المثل من احد القصص الفعالة في تاريخ العالم، لأن هذا يعني بان الله في كل سلطانه، ويسوع بكل محبته، والإنجيل بكل جماله، لا يستطيع خلاص نفس اي انسان إن لم يرغب ذلك الإنسان ان يخلص. حالة قلبك هي العامل الأخير والحاسم في خلاصك. سيقرر قلبك أخيراً ما إذا كانت ستثمر كلمة الله في حياتك. كل ما يفعله الله ويسوع واي شخص آخر، لا يكن له تأثير إن كانت أرض قلبك غير مجهزة وغير معدة لأستقبال الحبة التي ستزرع.

لخص يسوع قوة الدرس لهذا المثل في الآية ٩ عندما قال، «من له أذنان للسمع فليسمع.»

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧